لا خيار للصغار

في

لعبة الكبار

حدثنا ابن عربان قال:

«عدت لأبي العيال بعد العشاء أستمع في لهفة لحديثه عن أبي الهول الذي قام العالم ضده ولم يقعد لأقف على الأسباب...

الأسباب التي كانت وراء قرار الأمم الكبار بوقف أبي الهول عن الاستمرار في دنيا الأعمال...

فوجدت أبا العيال قد اتخذ مكانه هناك في المجلس بعد الصلاة يسبح، يحمد ويستغفر...

فجلست إليه أسأله عما آل إليه الحال مع أبي الهول في تلك الأيام الخوال...

فاستوى أبو العيال وشرع يقول:

«أُعلن القرار بوقف أبي الهول عن التعامل في مجالات الاستثمار وطرده من أسواق المال وتجميد أرصدته في البنوك ومصادرة ما يملك من أسهم وسندات وما تتعامل به شركاته من منقول وغير منقول من السلع أو العقارات...

وجاء في حيثيات القرار المنشور أن أبا الهول قد خالف قوانين الاستثمار العالمية وتدخل في الأسواق على نحو أفقد تلك الأسواق ميزان العرض والطلب الحر الأمين... مما شكل خطراً فادحاً على النظام العالمي العزيز المتين...!!

وأردف أبو العيال يقول:

«ونقلت الصحف المحلية ما بثته وكالات الأنباء العالمية من مقالات وتحقيقات الصلف والشماتة في أبي الهول...

ولم تخل من أقلام وتعليقات محلية تؤيد الأنباء وتصفق لأصحاب القرار البناء... الذي اتخذ في قمة الأمم الحريصة على أن يسود العالم النظام...

ثم قال أبو العيال:

«وما كان مني إلا أن حثثت الخطا لمكتب أبي الهول علّي أقف على بارقة من أمل حول مصير الفلوس... فلوسي وفلوس صغار المستثمرين في برامج هذا الاستثمار المنحوس...

دخلت فإذا السكرتيرة الحسناء تجفف ظلال الدموع.. أشارت إلي، وكأنها نسيت الكلام إشارة فهمت منها أكثر من حديث طويل..

كانت تقول بيديها: تفضل تفضل يا أبا العيال

تفضل فالمصاب أليم وأبو الهول في الداخل يحتاج من يواسيه..، ويشد على يديه..

قابلني أبو الهول بالعناق مهللاً.. وبالضحك مجلجلاً..: ها أبا العيال.. كيف الحال.. عَوْدٌ على بدءْ يا أبا العيال... إلى الصفر من جديد... هل أتاك ما قيل وما يقال...؟؟

وعندما لمح أبو الهول دهشتي من هذا اللقاء الضاحك الساخر في موقف لا يحتمل فيه مثل هذا الحال.. أخذ بيدي يجلسني ويقول: تعال... تعال يا أبا العيال

والله يا أبا العيال لست آسفاً على شيء مضى

إلا على خذلان أمثالك من الأصحاب في الديار

من صغار المستثمرين الذين لازمهم نحس الاستثمار في كل مجال

حتى آل الآمر إلى أن تجمد الأرصدة ويصادر المال.

ما كنت محتالاً يا أبا العيال

ولن أحتال

ولكنني أدركت حقيقة كبري

حقيقة تقول إن النظام القائم في دنيا المال والأعمال

لا يسمح فيه السادة من الكبار

أن يفلح الصغار أو يكسبوا إلا بمقدار

ولا أن يستقلوا بالقرار

فإن صدف أن تغير بعض الحال أو مال

وبدا كأن بعض الصغار قد حالفه بعض النجاح

في مجال الكسب والنماء

أو في مجال حسن الإختيار وسلامة القرار
يختل النظام
نظام السادة الكبار
فتسفر النوايا وينكشف المخبوء
ويصدر القرار سهلاً مريحاً عن قمة الأمم
بردع النجاح ومصادرة النماء وإحباط الهمم.

باختصار يا أبا العيال
كل ما في الأمر أنني تعلمت جانباً من اللعبة وأهملت الآخر

تعلمت لعبة الاستثمار في أسواق الين والدولار
في نيويورك وطوكيو، لندن وسنغابور
في الأسهم والسندات، وفي سلة العملات
في الذهب والفضة، في النحاس ومختلف السلع والفلذات
مما يباع ويشترى على الورق ويتداول الصكوك
وتجنى فيه الأرباح قبل أن ينتج أو ينزل السوق.

تعلمت هذا الجانب من اللعب
وبزت فيه أصحابه
لكنني قصَّرت في تعلم الجانب الآخر
لم أتعلم فن الرضوخ
الرضوخ لنظام لعبة الكبار
أفعل ما يملون
أغش وأخون
ألعب على حساب الصغار لحساب الكبار
أتسابق مع المتسابقين في تحقيق ما إليه يومئون
لم أتعلم هذا الجانب الآخر من اللعبة
لا عن جهل أو غباء

فهذا الجانب سهل هين
لمن له نفس تهون
يغرق بالنعيم والثراء
ينعم بالغالي والثمين
يؤجر الضمير، يتخم البطون على حساب الضعفاء

كل ما في الأمر يا أبا العيال
أنني لم أتعلم فن الغش والرياء.
لقد كنت في الأسواق
أحرص المتعاملين على التوازن الثمين
بين العرض والطلب الحر الأمين
كنت أكثر اللاعبين
التزاماً بما هو مرئي من النظم والقوانين
لكنني أدركت من خلال اللعب
أن أسطورة العرض والطلب
ليست إلا ستاراً ذكياً يستمد من قانون اقتصادي موقوف
وغلالة تزركش بادعاءات التنافس لتخفي حقيقة التحكم والاحتكار
يختبىء خلفها اللاعبون من الكبار
يديرون لعبة الكسب والسعار
كما يختبىء أصحاب الدمى
يحركونها بالخيوط خلف مسرح للعرائس.

أداروا لعبة الذهب
وأخرجوا مهزلة تدوير الفوائض
والإغراق في الديون
باسم العرض والطلب الأمين
فكوا ربط الدولار عن الذهب

فحمل كل حامل للدولار
تكاليف حرب فيتنام وحرب النجوم
وأعباء التسلح والحروب
ودعم زراعة القمح لديهم والحبوب
فاحتكروا الغذاء ونموا العداء

أجّروا الجنود والعتاد وتاجروا بالحروب
باسم العرض والطلب الأمين ونظام السوق الحر المتين. . .
نفخوا قربة الأسهم حتى الانفجار
وصفقوا للانهيار
يوم الإثنين المشؤوم
باسم السوق الحر والعرض والطلب الأمين

رفعوا الدولار فهبت الأسعار
وعادوا للدولار الرخيص
باسم الحفاظ على النظام وصالح الأنام وحرص الحريص
فبقيت أسعار الصناعات عالية
واتجهت للهاوية
قيم المواد والنفط الخام
فالنفط بالدولار يثمن
والدولار رخيص
يطبع ويعمم
ويتهافت عليه الأنام
تهافت الفراش على النار في الظلام
ويسخر ويضحك أكبر المدينين
وزعيم المرابين
من غفلة الأنام

من استقرار النظام
النظام مستقر
والعالم في تقدم
وكل الأمور تمام التمام. . . . !!

وتابع أبو الهول يقول:

«أَطلْتُ عليك يا أبا العيال
ولكن تلك هي الحال
وذاك ما آل إليه المآل
عدنا للصفر من جديد
هل نبحث عن استثمار جديد. . !!؟؟
أنتم من يبحث بعد الآن
فأنا موقوف عن النشاط مجمد الأعمال
بموجب ذلك القرار المجيد. . !!
ولكن صدقني يا أبا العيال
أنني لست حريصاً على جاه أو مال
فالمال يأتي ويروح
وحب المال مفسدة الحياة
لمن ألهمه الله معنى الحياة
وتكديس الثروات مرصود بالممات
والحساب عسير
فالملك لله
والإنسان خليفة
سيسأل عما استخلف فيه
وعما جنت يداه
لكنها السمعة

السمعة يا أبا العيال
فكل ما أخشاه
أن يُساءَ الظن بي
ممن أحببت وأخلصت وسعيت في رضاه
من الأهل والأحباب
فيُصدِقُ ما قيل وما قد يقال. . .
أنا. . . أنا لست محتالاً يا أبا العيال
ولن أحتال. . . !!

قال أبو العيال:

«غص أبو الهول بالكلام
وكاد يشرق بدمع مكتوم
لقد كان شديد الألم
لوصمه بما لم تجن يداه
شديد الخوف
من أن يتهم من قبل الأصدقاء
بسوء الأداء. . .»

وأردف أبو العيال يقول:

«ولم أشك لحظة في إخلاص أبي الهول وصدق كلامه فلم يكن أبو الهول محتالاً ولن يحتال. . .
ونسيت ما أنا به من هموم مع فقدان المال
وغدا همي أن أخفف من همه وما ساده من وجوم
فطفقت أقول:
«فداك المال يا أبا الهول
سعيت واجتهدت. . .
أخلصت النية وصدقت. . .

ولا يدَ لك فيما انقلب إليه الحال
وما أظنك إلا منصفاً مجبوراً
فما زال في العالم ديموقراطية وقوانين
وناس يؤمنون بالحقوق ويدافعون عن المظلومين
فما علينا إلا أن نلجأ للقضاء
فعسى أن نجد في قضاء المتقدمين
ما ننشده من عدالة
وما يؤوب علينا بالرجاء.

* * *